الرزق . فلماذا لم ترتقِ الارتقاء الطبيعي المزعوم بل لماذا رجعت التهتري منذ خمسة عشر عاماً الى الآن بينما كانت مصر جارتها آخذةً في هذا الارتقاء السريع

أيستطيع منصف ان ينظر في احوال هذين القطرين و يتأمل ما كانا عليهِ منذ عشرين عاماً بما وصلا اليهِ الآن الواحد في ارتقاء مستمرّ والآخر في انحطاط مستمر ثم تخفى عليهِ اسباب هذا الارتقاء وهذا الانحطاط . نعم ان الارتقاء من سنن الطبيعة ولكنهُ خاضع لاسباب معلومة لا يقوم الاَّ بها والانحطاط من سنن الطبيعة ايضاً ولهُ اسباب اذا توارت ادَّت اليهِ . فليقابل المنصف القطر المصري بالقطر السوداني او القطر المصري بالقطر الشامي وليبحث عما تغير في هذهِ الاقطار الثلاثة منذ خمسة عشر عاماً إلى الآن فلا تخفى عليهِ الاسباب الَّتي دعت إلى تقدُّم قطر منها وتأخر قطرين . وانما نقترح هذا البحث على القراء لا لمجرَّد العلم بهِ بل لكي يكثر حديثهم فيهِ عسى ان تبلغ اصواتهم آذان الذين يقدرون ان يصلحوا لو شاؤوا وان يداووا العلل قبل ان تودي بالعليل . والاصلاح ميسور بدليل ما حدث في القطر المصري في هذهِ الاعوام القليلة فهو مثال حيٌّ امام كل الذين يدهمهم الامر في الولايات العثمانيَّة فعسى ان يلتفتوا اليهِ وتأخذهم الشفقة على وطنهم بل على انفسهم لانهُ اذا دامت الحال على هذا المنوال عشرين سنة أُخرى اقفرت البلاد وهجرها العباد ان لم يتملكها الاجنبي قبل ذلك

مستقبل الصين

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله فاعلُ

ولكن اعمال الطبيعة واعمال الانسان تجري على سنن معلومة تعرَّف بالاختبار ولو لم تُعرَّف بضرب الحصى وزجر الطير فيزرع زيد قطنهُ اليوم بزوراً صغيرة سوداء ويعلم علم اليقين انهُ ينبت منها بعد ثلاث اخضر الورق منشعب الاغصان يبدو نورهُ بعد حين ويخلفهُ جوز فيهِ قطن ناصع البياض فيجنيهِ في اواخر فصل الخريف . وعلى هذا اليقين اشترى الاطيان وحرث وتزرع وتضرب عليها الضرائب ويستدين الفلاَّح مالاً ليوفيهُ من ثمن القطن ويدينهُ التاجر واثقاً ان القطن يجني في حينهِ و يباع بنحو الثمن الذي بيع بهِ في العام الماضي وما من احد من كل ارباب الزراعة يقول ما قالهُ الشاعر

واعلمُ علم اليوم والامس قبلهُ ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

بل يقولون كلهم انا نعلم علم اليوم والامس ونستنتج علم ما في الغد مما حدث اليوم

وامسى والاَّ فلو زرع الزارع قطنًا وهو لا يدري اينبت منهُ قطن او بصل او برسيم ورأى بقرة وهو لا يدري اتلد ثعلاً او حمارًا او فارةً وغرس كرمًا وهو لا يدري أيجني منهُ عنبًا او عوسجًا او حنظلاً لبطلت الاعمال كلها ولفشي على كل حي

والحكم على المستقبل سهل في الامور التي تتوالى كثيرًا في برهة قصيرة ويكثر اختبار الانسان لها كزرع الثمر وتربية الماشي وعسير في الامور التي لا تتكرَّر الاَّ بعد مئات من السنين فيتعذَّر على الانسان ان يستقري احوالها ويحيط بها ولا سيما اذا كانت خاضعة لدواعٍ كثيرة متساطة عليها . ومن هذا القبيل الحكم على مستقبل الشعوب والبلدان فانهُ عسير لان احوالها لا تتغيَّر الاَّ في ازمنة طويلة ولانها مرتبطة بروابط كثيرة يعسر استقراؤها كلها فكم ظن الناس لا يغطى كثيرًا ولا سيما في الممالك التي تقاس على غيرها مما عُرف تاريخهُ وعرفت عوامل ارتقائهِ وانحطاطهِ ومن هذا القبيل بلاد الصين الواسعة الارجاء الكثيرة السكان التي كادت تكون غيبة باردة للممالك الاوربية

ولا تذكر الصين ولا تذكر الهند الاَّ تعترى كل من يقرأ هذه السطور هزة كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطر ولا جامعة لنا باهالي الصين لا جنسيَّة ولا ملِّيَّة واذا نظرنا الى خريطة المسكونة وجدنا اننا واقفون في القاهرة عاصمة الديار المصرية رأينا لندن وبطرس برج اقرب الينا من باكين بل هما على نصف المسافة بيننا وبين عاصمة الصين. ثم ان اهالي اوربا كلهم اقرب الينا في الاخلاق والعادات من اهالي الصين . والجنس الآري المنتشر في اوربا اقرب الينا من الجنس المغولي المنتشر في بلاد الصين . واهالي اوربا كتابيون مثلنا يختلف اهالي الصين فانهم وثنيون ولا عبرة بمن بينهم من المسلمين والمسيحيين لانهم قليلون جدًّا بالنسبة الى جمهور الصينيين . فالاوربيون اقرب الينا بقعةً وجنسًا ودينًا ولا تجمعنا بالصينيين الاَّ جامعة التأخُّر ومع ذلك لنتصر لهم في اقوالنا وآرائنا على الاوربيين ولو كان لنا حَوْل وطَوْل لانتصرنا لهم بذراعنا وسلاحنا وليس ذلك من قبيل الاشفاق على الضعيف والكراهة للمغتصب بل لانهُ قد رسخ في اذهاننا ان الصينيين شرقيون مثلنا وشاركوكنا في اعتداء الاوربيين علينا . وما دمنا نبتعد عن الاوربيين ونقف امامهم موقف الخصم العادي فلا بدَّ لنا من ان نجني ثمار هذه الخصومة . اما الذين عدتهم الحكمة العمليَّة الى اعتبار الارتقاء نتيجة لازمة عن حسن السياسة والتأخُّر نتيجة لازمة عن فساد الاحكام فيوجِّهون بكل شعب مرتقي ويقولون هذا اخوفا وفدوتنا ويتلمَّسون خطواتهِ ويمتزجون به امتزاج الماء بالراح ويساعدونهُ في هدم معاقل الظلم والاستبداد وزرع عوامل الخراب والدمار

ومملكة الصين اقدم ممالك الارض واكثرها سكاناً فان مساحتها وحدها من غير البلدان التابعة لها نحو مليون وثلث من الاميال المربعة اي اكثر من عشرة اضعاف امثال انكلترا وسكتلندا وارلندا . وعدد سكانها ٣٨٦ مليوناً اي اكثر من عشرة امثال السكان في فرنسا او من عشرة امثالهم في انكلترا وسكتلندا وارلندا واكثر من ثلاثة امثال السكان في سلطنة الروس الوسيعة . وهي ثماني عشرة ولاية ويتبعها خمس ممالك واسعة الارجاء قليلة السكان وهي منشوريا ومساحتها ٣١٢ الف ميل وسكانها سبعة ملايين ونصف ومنغوليا ومساحتها مليون وربع من الاميال وعدد سكانها مليونان من الانفوس والتبت ومساحتها ٦٥١ الف ميل وسكانها ستة ملايين وجنغاريا ومساحتها ١٤٨ الف ميل وسكانها ٦٠٠ الف وتركستان الشرقية ومساحتها ٤٣٣ الف ميل وسكانها ٥٨٠ الفاً . ولذلك فاكثر سكان الصين في الصين الاصلية وهم في بعض ولاياتها مزدحمون ازدحاماً لا مثيل له فولاية فوكيان مساحتها ٣٨ الف ميل وعدد سكانها نحو ٢٢ مليوناً في الميل المربع منها ٥٧٤ نفساً وولاية شنتنغ مساحتها ٥٤ الف ميل وسكانها ٣٦ مليوناً . ومتوسط عدد السكان في الميل المربع من الصين الاصلية ٢٩٣ نفساً

والبلاد زراعية كثيرة الخصب وهي غنية بالمعادن ولاسيما الفحم الحجري والحديد والنحاس واهلها من اصبر الناس في الزراعة والصناعة وهم اهل دعة ومسالمة ولكن حكومة البلاد من اشد ما يكون فالجبل ثقيل عليها والظلم ضارب اطنابهُ فيها والظلم وخيم المرتع والنفوس تضغط إلى حدٍّ محدود فاذا فاق الضغط ذلك الحد فإما ان تزهق او تحمل اصحابها على الثورة ولذلك كثر الثائرون على الحكومة من رعاياها وتألفت فيها جمعيات سرية لقلب الحكومة او خلع العائلة الحاكمة او لنحو ذلك من الاغراض كأن اعضاءها يحسبون انهُ كيفما تغيرت احوال البلاد فلا يمكن ان يزيد شقاؤها عما هو عليهِ الآن

هذا من حيث البلاد واهلها . ولو كان سطح الكرة الارضية لا يحوي الا بلاد الصين او لو كانت بعيدة عن سائر البلدان بعداً شاسعاً ولا اتصال بينها وبين غيرها لبقيت على ما كانت عليهِ منذ اربعة آلاف عام إلى الآن تسعد شهراً وتشقى دهراً لكن البخار قد قرّب الابعاد وازال كل فاصل من بين الامم والممالك فجاءت اموال اهل الثروة جيوشهم الجرارة التي اخضعوا بها الممالك بل اخضعوا بها قوى الطبيعة فدخلت خزائن الصين وربطتها بالممالك الاوربية بقيود وثيقة فاصبحت مدينة لاوربا باكثر من خمسين مليوناً من الجنيهات على اثر الحرب الاخيرة مع اليابان وهذا الدين يضطر الحكومة الصينية إلى زيادة الضغط على الاهالي

وابتزاز الاموال منهم لايفاء ربائه فيزيد شكواهم وبغضهم لحكومتهم وللاجانب المقيمين في بلادهم فتكثر القلاقل والفتن وتضطر الدول الاوربية الى القبض على زمام الحكومة الصينية وقد قبضت روسيا والمانيا وانكلترا وفرنسا على بعض الثغور البحرية فاخذت روسيا بورت ارثر وتابان وان وانكلترا واي هاي واي والمانيا ياوشاو وفرنسا نوشنغ اخذتها على سبيل الايجار وستكون ملتاحاً للبلاد كلها

ولدى الصين الآن سبيلان الاول وهو الاصلح لها ان تبذل كل مرتخص وغال في اصلاح شؤونها حتى لا تبقى للدول الاوربية سبيلاً عليها فترتقي ارتقاء يابان وتصير اعظم دول الارض منعة كما هي اكثرها سكاناً . ولا يستحيل ذلك على الصينيين لانهم اقوياء الابدان اصحاء العقول اهل جدّ ونشاط حتى لقبهم بعض الباحثين باميركيي المشرق . والسبيل الثاني والاقرب ان يستسلم الصينيون لعوامل التفريق والتدمير فتقتسم الدول الاوربية بلادهم تأخذ روسيا شمالها وفرنسا جنوبها ويبقى لانكلترا القلب — قمة الاسد او نحو نصف بلاد الصين ولا تحرم المانيا واليابان من نصيبهما بل تعطى كلٌّ منهما نصيباً صغيراً قدر ما تهضم معدتها ويسمح به كرم مناظراتها

ولقد جاهر الفرنسويون غير مرة انهم انما حاربوا التنكين في جنوبي الصين وضموها الى املاكهم لا رغبة فيها بل رغبةً في جعلها قاعدة لضم سائر ولايات الصين الجنوبية حينما تسنح الفرص بل ان القائد ريفير الفرنسوي حاول ضم تلك الولايات حينما نشبت حرب التنكين بين سنة ١٨٨٣ و ١٨٨٥ وقد خسرت فرنسا في تلك الحرب ثلاثين الف محارب واكثر من الف مليون فرنك ولم ترتدّ عن ولايات الصين الجنوبية الاّ لانها وجدت ان لا قِبَل لها بالصينيين حينئذٍ فانهم حاربوها بسالة لم تُرَ في جنود منشو وهونان الذين حاربوا اليابان . فربضت على حدود الصين تنتظر قيام الفتن التي تفرق كلمة اهلها وتضعف قوتهم فيسهل عليها امتلاك بلادهم او تنتظر حتى تنضبها الصين بذبح مرسليها فتهاجم ثغورها البحرية وتدخلها عنوةً او حتى تتفق الدول الاوربية على اقتسامها

وغاية ما يطلبهُ محبو الانسانية ان يزول الجور من الدنيا وتنتشر فيها راية العدل سواء كان الناشر لها عائلة منشو الحاكمة الآن في بلاد الصين او عائلة رومانوف الحاكمة الآن في روسيا وسواء كان الملوز لها ملكاً مستبداً اخذ الملك بالارث او رجلاً دهاءً رقي بجدّه وحسن سياسته حتى صار رئيساً لاجمل مملكة من ممالك الارض . والناس يسعون الآن الى هذه الغاية سعياً حثيثاً وسيدفنون منها كل عام قدر ما كانوا يدفنون قبلاً في مئة عام فلا يبقى الاّ كل صالح للبقاء